السلطة العثمانية وآليات الوقاية من الأوبئة في إيالة الجزائر، الحجر الصحي أنموذجا

Ottoman authority and epidemic prevention mechanisms in Algeria, quarantine as a model

غراف هجيرة

جامعة وهران1 أحمد بن بلة (الجزائر)، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الاسلامية، قسم التاريخ، مخبر مصادر وتراجم،

ghouraf.hadjira@edu.univ-oran1.dz

تاريخ الإرسال: 2020/04/21 تاريخ القبول: 2020/06/15 تاريخ النشر: 2020/07/30

الملخص:

عرفت الجزائر في الفترة العثمانية انهيارا في المنظومة الصحية، بحيث لم يكن الميدان الصحي من اهتمامات السلطة العثمانية في الجزائر، هذا ما أثر على المجتمع الجزائري في فترات انتشار الأوبئة والأمراض المعدية، خاصة وأن السلطة العثمانية لم تكن سياستها واضحة في التعامل مع الأوضاع الصحية المستجدة من خلال تطبيق الحجر الصحي، الذي يعد من أنجع الطرق في الوقاية من العدوى بالأمراض المختلفة، خاصة الطاعون.

يتناول هذا المقال آليات السلطة العثمانية في تطبيق الحجر الصحي في الجزائر والتي تأرجحت ما بين الاستهتار والصرامة، من خلال عرض بعض المظاهر والأمثلة، بمنهج تاريخي، تحليلي، وصفي، لتسليط الضوء على موضوع الحجر الصحي تاريخيا، وانعكاساته على المجتمع الجزائري في الفترة العثمانية، ومقارنة آليات الحجر الصحي في إيالة الجزائر وفي الدولة العثمانية، من أجل فهم طبيعة السلطة العثمانية في التعامل مع هذه الأوضاع.

الكلمات المفتاحية: السلطة العثمانية ؛ الجزائر ؛ الحجر الصحي ؛ الأوبئة ؛

Abstract:

In the Ottoman period, Algeria experienced a breakdown of the health system, as the health field was not a concern of the Ottoman authority in Algeria, which affected the Algerian society during periods of spread of epidemics and infectious diseases, especially since the Ottoman authority did not have a clear policy in dealing with the new health conditions through the application of quarantine, which is one of the most effective ways in preventing infection.

This article deals with the mechanisms of the Ottoman authority in the application of quarantine in Algeria. This article approach some aspects and presents some examples, in a historical, analytical and descriptive method, to highlight the historical aspect of quarantine, its repercussions on the Algerian society in the Ottoman period, and to compare the quarantine mechanisms applied in the Algerian Regency and in the Ottoman Empire, in order to understand the nature of Ottoman authority in dealing with these conditions.

Keywords: Ottoman authority ; Algeria ; quarantine ; epidemics ;

1.مقدمة:

عرفت الجزائر في الفترة العثمانية العديد من الفترات التي انتشرت فيها الأمراض المعدية والتي من أشهرها الطاعون، الذي عانت منه الجزائر، وكانت آثاره المختلفة واضحة، وقد تأرجحت آليات السلطة العثمانية في التعامل مع الأوضاع الصحية ما بين الصرامة والاستهتار، بحيث سنحاول ضمن هذه الورقة التعرض لدراسة آليات السلطة العثمانية في مجابهة الأوضاع الصحية المستجدة من خلال التركيز على دور الحجر الصحي بمنهج تاريخي تحليلي وصفي، خاصة مع اتساع الحديث عن هذا الموضوع عقب الأوضاع الصحية التي يشهدها العالم بعد تفشي فيروس "Covid 19".

وقد تناولت العديد من الكتابات التاريخية دراسة الميدان الصحي في الجزائر في الفترة العثمانية سواء من خلال البحوث الأكاديمية مثل تلك الخاصة بـ "الصحة والسكان" للدكتورة "فلة موساوي"، أو من خلال العديد من المقالات التاريخية، إضافة إلى بعض المصادر التاريخية التي عاصرت الفترة العثمانية ووقفت على الواقع الصحي في الجزائر من خلال الاشارة لما مدى حرص السلطة العثمانية على تطبيق الحجر الصحي، مثل كتاب "إتحاف المنصفين" لـ "حمدان خوجة"، وبعض الاشارات أيضا ضمن بعض المصادر الأوروبية، في حين أن الكتابات التركية ركزت على الفترة التي طبقت فيها الدولة العثمانية لقواعد الحجر الصحي بصرامة.

انطلاقا مما سبق سنحاول ضمن هذا المقال معالجة إشكالية تتمحور حول مدى وضوح آليات السلطة في التعامل مع الأوضاع الصحية الناتجة عن انتقال العدوى من خلال تطبيق الحجر الصحي وانعكاسات هذه الآليات على المجتمع الجزائري، ولمعالجة هذه الإشكالية سيتم التطرق لمجموعة من العناصر التي تهدف إلى تسليط الضوء على مفهوم الحجر الصحي وآليات تطبيقه في إيالة الجزائر، فما مفهوم الحجر الصحي وما تاريخه؟ هل عرفت الجزائر في الفترة العثمانية تطبيقا مبكرا لقواعد الحجر الصحي؟ هل كانت آليات السلطة واضحة وهل عبئت جميع امكانياتها لمجابهة الأوضاع الصحية الناتجة عن انتقال العدوى من خلال تطبيق قواعد الحجر الصحي؟ ما انعكاسات آليات السلطة في تطبيق القواعد الصحية على المجتمع الجزائري؟

2. تعريف الحجر الصحي وتاريخه:

لا يختلف مفهوم الحجر الصحي في التاريخ عن مفهومه المعاصر، بحيث يختلف عن مفهوم العزل، ذلك أن العزل يتم اللجوء إليه للتعامل مع المرضى الذين ثبتت إصابتهم بالأمراض المعدية مثل الطاعون، والذين يشكلون خطرا على الآخرين، في حين أن الحجر الصحي يتم تطبيقه على الأشخاص الذين من الممكن أن تنتقل لهم العدوى بسبب مخالطتهم لأشخاص مصابين، أو بسبب تفشي المرض في منطقة معينة[1].

وقد احتفظ الموروث النبوي بحديث النبي محمد عليه الصلاة والسلام بخصوص الحجر الصحي، من خلال قوله "إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها فرارا منه" رواه بخاري ومسلم، وانطلاقا من هذا يتضح لنا من خلال هذا الحديث أن قواعد الحجر الصحي كانت معالمها واضحة في فترة تاريخية مبكرة من التاريخ الاسلامي، بحيث دعى النبي محمد إلى عدم الذهاب إلى المناطق الموبوءة حتى لا تنتقل العدوى إلى المسافر إليها، وفي نفس الوقت فإن الفرار من المنطقة الموبوءة يتسبب في نقل الوباء إلى مناطق أخرى.

إضافة إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يوردن ممرض على مصح" أي منع زيارة شخص مريض لآخر سليم حتى لا تنتقل العدوى، وهذا تطبيقا لمفهوم الحجر الصحي[2]، هذا إضافة إلى العديد من المواقف التي حصلت مع صحابة الرسول رضوان الله عليهم تتعلق بمفهوم الحجر وطرق التعامل مع الأوبئة والأمراض المعدية، وعلى هذا الأساس يمكن القول أن تدابير الحجر الصحي ليست جديدة ولا مستحدثة بالنسبة للشعوب الاسلامية، خاصة وأننا بصدد معالجة هذا الموضوع من خلال مجال جغرافي مسلم.

هذا المفهوم الديني للحجر الصحي يندرج ضمن تدابير الوقاية الفعلية وضمن الاحتياطات والأخذ بالأسباب، وينفي مظاهر الإستكانة وتقبل الأمر الواقع بدعوى التوكل على الله، ذلك أن الدين الاسلامي إلى جانب التوكل ركز على صون النفس والأخذ بأسباب سلامتها وسلامة محيطها.

فقد وضع الإسلام قواعد لمنع الأمراض المعدية، إضافة إلى الحجر الصحي، تشمل عزل المريض، عدم الدخول على الوباء، عدم الفرار منه، الاستعانة بالطب والدواء، والتطعيم في الوقاية والعلاج[3].

تاريخيا، تعتبر البندقية أول مدينة يتم فيها تطبيق قواعد الحجر الصحي، وكان ذلك سنة 1377م على الركاب، وتم سنة 1423م إنشاء أول مكان مخصص للحجر الصحي في البندقية، مقابل جزيرة "Santa De Maria"[4]، عرف هذا المكان باسم " Lazzaretto" أي مكان الحجر، أما في سنة 1468م فقد تم إنشاء مكان آخر للحجر في البندقية عرف بـ "Lazzaretto Nuovo" أي مكان الحجر الجديد، وذلك لعزل أطقم السفن القادمة من المناطق الموبوءة، في حين كان يتم إرسال المرضى الذين تأكدت إصابتهم بالمرض إلى مكان الحجر الأول، والذي أصبح يسمى "Lazzaretto Vecchio" أي مكان الحجر السابق[5].

احتوت أماكن الحجر في البندقية على حوالي مائة غرفة، هذا ما دفع السلطة إلى إنشاء أمكان من نوع آخر، وذلك بعد الانتشار الرهيب للطاعون في البندقة عام 1576م، والذي أودى بحياة 43 ألف شخص، حيث تم تجهيز المراكب الراسية والآمنة في الميناء لاستعمالها للحجر الصحي، قدرت بحوالي ثلاث آلاف مركب، وعمل الأطباء والمتطوعون على فرض نظام مراقبة صارم، وذلك لضمان التباعد بين المرضى، وتم الاستعانة بالجنود لإحباط أية محاولة للفرار، وكان يتم تجهيز مشنقة على أحد المراكب للترهيب بتطبيق الإعدام على أي شخص يحاول كسر قواعد الحجر[6].

عرف مصطلح الحجر الصحي بأصله الإيطالي "Quaranta giorno" على اعتبار أن البندقية هي أول من طبق قواعده، ويعني "أربعين يوم" أي مدة حضانة المرض[7]، تجدر الإشارة ضمن هذا السياق أنه في الوقت الحالي والذي يشهد فيه العالم انتشارا للفيروس المستجد "Covid19" أننا درجنا على استعمال المصطلح الفرنسي للحجر الصحي" La quarantaine" ذو الأصل الإيطالي، هذا المصطلح يعود إلى الفترة التاريخية التي تم فيها اعتماد الحجر لأول مرة، والتي كانت تتم فيها عملية الحجر قرابة الـ 40 يوما أي "Quarantaine de jours"، في حين أن فترة حضانة الفيروس المستجد "Covid19" هي 14 يوما أي من المفروض يصبح المصطلح "La quatorzaine".

أما الدولة العثمانية، والتي لها اتصال بموضوع هذه الدراسة فإنها عرفت الحجر الصحي، بحيث سوف نتطرق له لاحقا، على أن مصطلح الحجر باللغة العثمانية عرف بـ "Usûl-i tahaffuz" في حين أن المكان المخصص للحجر عرف بـ "Tehaffuzhâne"[8].

3. الجزائر وبؤر انتشار الأوبئة:

عرفت الجزائر في الفترة العثمانية انبعاثا لنشاط ملاحي هام ولعبت دورا استراتيجيا هاما من خلال العلاقات التجارية الهامة التي تمخضت عن توقيع العديد من إتفاقيات السلم والتجارة مع عدد من الدول الأوروبية مثل فرنسا وإنجلترا، وعلى هذا الأساس عرفت هذه الإيالة حركية تجارية وبحرية هامة، تقضي بنقل المسافرين والتجار على غرار السلع والبضائع، وعلى هذا الأساس فإن هذه الإيالة لم تكن بمأمن من إحتمالية انتقال عدوى الأمراض المختلفة وانتشار الأوبئة.

إلى جانب النشاط التجاري، فإن هذه الإيالة لعبت دورا عسكريا هاما بحكم موقعها الجيوسياسي، الذي تفاعل مع مختلف المتغيرات في البحر الابيض المتوسط، ودخل في صراع مع القوى المسيحية في إطار التدافعات الحضارية والثقافية الناتجة عن الصراع الديني بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي، وعلى هذا الأساس ركزت السلطة العثمانية في هذه الإيالة على دعم القوة العسكرية ومظاهرها.

من مظاهر دعم السلطة العثمانية في إيالة الجزائر لمختلف المظاهر العسكرية هي تولها دعم آليات تجنيد المتطوعين للعمل العسكري في الإيالة، والذين كان يتم نقلهم من مناطق مختلفة من الأناضول والبلقان وبعض المناطق التابعة للامبراطورية العثمانية، وعلى هذا الأساس شكلت إشكالية التجنيد إلى جانب النشاط التجاري عاملا من عوامل حركية السفن واحتمالية انتقال عدوى الأمراض المختلفة.

إلى جانب ما سبق شكلت مواسم الحج عاملا مهما في حركية المسافرين ووسائل النقل، خاصة وأن الجزائر في هذه الفترة وضعت وكلاء للحج في عدد من الإيالات التابعة لها الواقعة على طريق الحج، ما كان يسمح باحتكاك الحجاج الجزائريين بمختلف الشعوب المسلمة سواء في طريقهم إلى الحج أو عند تأدية المناسك.

على هذا الأساس وفي ظل ضعف المنظومة الصحية في الجزائر في الفترة العثمانية، بحيث اجتمع أغلب الباحثين والمؤرخين على ضعفها مقارنة مع الامكانيات الصحية التي كانت تتمتع بها أوروبا، على اعتبار الاهتمام بالجوانب العسكرية على حساب المجالات ذات الطابع الاجتماعي والثقافي، فإن مجابهة الأوبئة المختلفة في هذه الإيالة لم تتضح معالمها من خلال المصادر التاريخية، خاصة فيما يتعلق بآليات الحجر الصحي، وكيفية تطبيقها وأماكن تطبيقها، وانطلاقا من هذا فإن الفترة العثمانية في الجزائر، خاصة في الأوقات التي انتشر فيها الطاعون واستفحلت فيها الأوبئة، فإن طريقة تعامل السلطة العثمانية تأرجحت ما بين الصرامة في مواجهتها وما بين الإستهتار.

4. السلطة العثمانية ونظام الحجر الصحي في الجزائر:

1.4 الصرامة في تطبيق الحجر الصحي:

يذكر الطبيب الجزائري "ابن حمادوش" في رحلته أن الجزائر عرفت تدابير الحجر الصحي على مركب حجاج قدم من الاسكندرية، بحيث عمل الباشا على منع الحجاج من النزول من على ظهر السفينة إلا بعد الخضوع للحجر الصحي

والتحقق من سلامة الجميع[9]، وأصبحت هذه الإجراءات على حد تعبير بعض المصادر "عادة" لدى السلطة، تمس جميع السفن القادمة إلى الجزائر[10] أي أن السلطة دأبت على تطبيق الحجر الصحي في أغلب الأحيان.

تجدر الإشارة ضمن هذا السياق إلى أن مدينة الاسكندرية اعتبرت في هذه الفترة من أهم المناطق التي كانت الأوبئة تنتقل عن طريقها، ذلك أن هذه المدينة تميزت بمينائها الكبير والهام، والذي شكل نقطة عبور والتقاء مختلف السفن ومختلف الجنسيات، كما عمل هذا الميناء على نقل المجندين إلى الجزائر إضافة إلى الحجاج، وعلى هذا الأساس كانت السفن القادمة من الاسكندرية خلال مواسم الحج يخضع حجاجها للحجر الصحي في فترة الدايات حسب الرأي السابق.

من بين المناطق التي تميز حكامها بالصرامة النسبية في تطبيق إجراءات الحجر الصحي هي مدينة قسنطينة، حيث تسجل المصادر التاريخية التدابير المتعلقة به من خلال جهود "صالح باي" الرامية لحماية المدينة من تفشي الأوبئة والأمراض المعدية، خاصة بعد أن أصبحت هذه المدينة تشكل أهمية تجارية كبيرة، وملتقى الطرق التجارية في المغارب والصحراء، كما شكلت عنابة منبعا اقتصاديا وتجاريا هاما، بعد أن أصبح ميناؤها إلى جانب ميناء القالة يشكلان دورا هاما، وأصبحا يستقطبان السفن التجارية الأوروبية.

على هذا الأساس عرفت مدينة عنابة خسائر معتبرة في السنوات التي عرفت انتشارا للوباء في بايلك الشرق أي منذ سنة 1783 إلى غاية 1829م[11]، وعلى هذا الأساس قام "صالح باي" سنة 1787م بتطويق مدينة عنابة من خلال فرض حزام صحي، لمنع انتقال عدوى الطاعون من هذه المدينة إلى باقي مناطق بايلك الشرق وخاصة عاصمته قسنطينة[12].

إلى جانب ما تضمنته رحلة "ابن حمادوش" التي أشار فيها إلى دور السلطة العثمانية في تطبيق الحجر الصحي على الحجاج، فإن السلطة العثمانية حرصت على تفادي الإبقاء على المعاملات التجارية مع الأوربيين في المناطق الموبوءة، سواء في الجزائر أو في أوروبا.

حيث تضمنت بعض الوثائق الفرنسية نقل مقر شركة الملكية الافريقية إلى مدينة القالة بدلا من الحصن الذي تم إخلاؤه بسبب الأوبئة التي اجتاحته[13]، وعلى هذا الأساس كانت السلطة تلجأ إلى الحجر الصحي لحفظ الصحة، في ظل غياب منظومة صحية متينة، عندما تعلم بانتشار الأمراض المعدية في إحدى السفن الوافدة إلى الجزائر[14].

2.4 الاستهتار في تطبيق الحجر الصحي:

في رأي مخالف لما تطرقنا سابقا، عرفت المنظومة الصحية في الجزائر في الفترة العثمانية انهيارا واضحا، ولم تحرز تقدما في الميدان الطبي، مقارنة مع الدول الأوروبية التي كانت تشهد انبعاثا لنهضة علمية، غيرت موازين القوى لصالح الأوروبيين، وانتهت بفرض التبعية الأوروبية في ميدان الصناعة والصناعة الطبية وطرق التداوي.

وقد استطاعت السلطة العثمانية مواكبة هذا التطور عن طريق الاستفادة من التجارب الأوروبية في بعض المجالات، لكن هذه المواكبة تمحورت حول المجال العسكري والصناعة الحربية، وأضحى المجال الطبي بعيدا عن

اهتمامات السلطة العثمانية، التي شكل تواجدها في الجزائر انعكاسا لنظام فئوي عسكري عجز عن تبني تصور اجتماعي لعلاقة السلطة بالمجتمع، ما نتج عنه عناصر أزمة بنيوية.

إن سياسة السلطة العثمانية في الجزائر انعكست على المجال الطبي، وعلى التدابير المتخذة للوقاية من الأمراض المعدية خاصة الطاعون، وعلى هذا الأساس لم تلتزم هذه السلطة بإقامة قاعدة صحية تقضي بالصرامة في تطبيق آليات الحجر الصحي باعتباره أنجع طرق الوقاية.

وعلى هذا الاعتبار تذهب "عائشة غطاس" إلى اعتبار أن تطبيق آليات الحجر الصحي كان يتوقف على مدى وعي وصرامة حكام الجزائر الذي تداولوا على السلطة في التعامل مع الأوضاع الصحية التي كانت تعصف بالجزائر، وانطلاقا من هذا لم تكن آليات السلطة واضحة في هذا المجال[15].

إن عدم اهتمام السلطة العثمانية بالميدان الصحي راجع إلى سياسة حكامها من باشوات وبايات في استجلاب أطباء أجانب خواص لتلقي العناية الطبية الخاصة[16]، مثل استفادة الداي "علي خوجة" من خدمات الطبيب الإسباني "Juan Fernandez De Las Heras" سنة 1818م[17]، والاستعانة بالأطباء الأسرى[18] مثل الأسير الإيطالي " Pascual Gamizo" الذي كان طبيبا لدى "صالح باي"[19]، وعلى هذا الأساس لم توجه السلطة امكانياتها نحو خلق قواعد صحية ذات طابع اجتماعي، موجهة نحو السكان، ولم تسعى إلى تشييد مدارس ومعاهد خاصة بدراسة الطب[20]، كما أنها لم تسعى نحو تشجيع دراسة الطب والعلوم المساعدة له.

وعلى الرغم من أن بعض البايات والباشوات احترموا التدابير الاحترازية للوقاية من الطاعون والأمراض المعدية مثلما أشرنا سابقا، فإن العديد من البايات والباشوات لم يلتزموا بتطبيق هذه التدابير، ولم يحترموا إجراءات الحجر الصحي على الأشخاص والسفن؛ ومن مظاهر هذا الاستهتار ما تجسد سنة 1786م، حين سمح "الداي محمد" لسفينة موبوءة بالرسو في ميناء الجزائر دون تطبيق الحجر الصحي عليها، ما أدى إلى انتشار العدوى[21].

كما عرفت مدينة الجزائر طاعونا خطيرا سنوات 1793-1794م، نقله إليها بحارة قدموا من القسطنطينية، ولم يخضعوا للحجر الصحي، ثم انتقلت العدوى إلى قسنطينة، التي عرفت انتشارا واسعا للوباء، في حين سلم الساحل الشرقي للجزائر بفضل الاجراءات الاحترازية التي اتخذها وكيل الباستيون الفرنسي في القالة بإذن من "علي باي"، ليضرب الطاعون مدينة قسنطينة مجددا سنة 1799م ويصل إلى الجنوب الجزائري[22].

كما شهدت سنة 1817م، انتشارا واسعا للطاعون، أدى إلى انهيار ديمغرافي كبير، وكانت تبعاته واضحة على الواقع الاجتماعي والاقتصاي للجزائر، وكان من بين العوامل التي أدت إلى انتشار الوباء سنة 1817م هي عدم إلتزام السلطة بتطبيق اجراءات الحجر الصحي بطريقة صارمة وفعالة.

حيث قدمت بارجة أهداها الصدر الأعظم للداي في يوم 8 ماي سنة 1816م، تم السماح لها بالرسو في الميناء دون أية إجراءات إحترازية من طرف السلطة[23]، في حين أن بعض المصادر الأخرى تذكر أن هذا الوباء كان بسبب قدوم سفينة عثمانية محملة بالحجاج من الإسكندرية[24]، حيث أن طاعون سنوات 1816-1817م لم يتفق المؤرخون حول مصدره، وعلى هذا الأساس تضاربت الآراء حول تاريخ قدوم السفينة أو السفن الموبوءة إن كانت نهاية سنة 1816م أو بداية 1817م.

دام هذا الطاعون لما يقارب ثلاث سنوات، وعلى هذا الأساس وفي ظل غياب التدابير الصحية الناجعة من طرف السلطة أثر على الإيالة بشكل واضح وانعكس على الشعب الجزائري، فعملت السلطة على التكتم على آثاره، ومعاقبة من يتحدث عنه[25]، فقد نتج عنه خسائر بشرية كبيرة واندثرت العديد من العائلات والعروش[26].

من جهة ثانية تجدر الإشارة إلى أن استجلاب الأطباء الأجانب لتقديم الرعاية الصحية لرجال السلطة، لم يكن ناجعا في الحالات التي ينتشر فيها الوباء بصفة كبيرة، ويصبح خطر العدوى كبيرا، هذا ما انعكس أيضا على آليات الوقاية التي اتخذتها السلطة، في ظل عدم وجود قاعدة صحية، وعدم الالتزام بتطبيق الحجر الصحي، فإن العديد من الكتابات التاريخية أشارت إلى أن الحكام كانوا يفرون من الوباء، ما يعكس عدم المسؤولية في التعامل مع الأوضاع الصحية، والتي تردت بفعل عدم وعي السلطة بآثارها على الجزائر.

حيث تذكر المصادر التاريخية أن الباشا "محمد تكلرلي" فر من مدينة الجزائر عقب انتشار الطاعون نحو منطقة راس الخشين، مع عائلته وبعض وزرائه، ولم يرجع إلا مع بداية سنة 1556م[27]، كما فر "عثمان باي" باي وهران نحو سهل ملاتة سنة 1794م، ولم يرجع إلى قصره هو وعائلته إلا بعد مضي ثلاثة أشهر[28]، ذلك أنهم لم يكونوا يملكون خطة واضحة وثابتة في مواجهة الأوبئة، ولم يؤسسوا لقاعدة طبية تصلح للحالات الصحية المفاجئة مثل استفحال انتشار العدوى.

إن نمط السلطة العثمانية وبنيتها في إيالة الجزائر، والتي كما سبق وذكرنا لم تعمل على ربط البنيات الاجتماعية بسلطة الحكم، وسعت إلى التأسيس لنظام غير مرتبط بالواقع الاجتماعي أدى إلى استهتار السلطة بصحة السكان، هذا إلى جانب دور السلطة الدينية في التأسيس لخطاب ديني ساهم في تبني تصور شعبي منفصل عن الحقيقة الاسلامية والعلمية، من خلال اعتبار الطاعون "غضب من الله"، أو "اختبار من الله"، ووجوب "التوكل على الله"، هذا ما ساهم في عدم الأخذ بالأسباب الوقائية والعلاجية.

وقد تطرقنا في مفهوم الحجر الصحي إلى الإشارة إلى المفهوم الديني وتاريخ الحجر في الموروث الإسلامي، بحيث أن النصوص الشرعية دعت بشكل واضح وصريح إلى ضرورة الالتزام بقواعد الحجر الصحي، فإن إيالة الجزائر على الرغم من كون أغلب سكانها مسلمين، والدين الرسمي للدولة هو الدين الاسلامي، إلا أن هذا يقودنا إلى إعادة التأكيد على الدور الثقافي والتعليمي، الذي انهار على حساب أولويات السلطة العثمانية في الجزائر.

لم تقتصر مظاهر التسليم بالقضاء والقدر، وعدم الأخذ بالإجراءات اللازمة على سكان الجزائر فحسب، بل تجسد ذلك أيضا في بعض رجال السلطة الذين ذهبوا إلى اعتبار الوازع الديني يقي من الإصابة بالطاعون، هذا ما خلق استهتارا بقواعد الحجر الصحي، ومن مظاهر ذلك تذكر بعض الكتابات التاريخية أن "الداي إبراهيم" منع أحد القناصل من تطبيق الحجر الصحي على سفينة قادمة إلى ميناء الجزائر، معتبرا كونه تركيا مسلما، هذا سيحميه من العدوى، في حين أن القنصل الذي حاول تطبيق الإجراءات الصحية اتهمه الداي بمسيحيته ذلك أنه لم يأخذ بالقضاء والقدر[29].

على الرغم من وجود مظاهر الاستهتار في التعامل مع الأمراض المعدية، إضافة إلى مظاهر الخضوع والاستكانة سواء من طرف السلطة أو من طرف المجتمع، إلا أن العديد من سكان الأرياف عملوا على الأخذ بأسباب السلامة والوقاية، فعلى اعتبار القطيعة بينهم وبين السلطة، التي لم تتمكن من اختراق المجال الريفي إلا عن طريق الآلة الجبائية، فإنهم كانوا يلجؤون إلى المناطق المعزولة من أجل تفادي عدوى الأوبئة المختلفة، خاصة وأن السلطة لم تكن تهتم بدواخل البلاد ولا بتطويرها نتيجة المداخيل المتأتية من النشاط البحري، ما جعل الأرياف الجزائرية في هذه الفترة غير متطورة من ناحية الخدمات الصحية على غرار المدن التي كانت تعاني أيضا في هذا المجال.

من الأمثلة على ذلك كان سكان منطقة القبائل يلجؤون إلى المناطق المعزولة في الجبال حين تنتشر الأوبئة والأمراض المعدية، إضافة إلى إجراءات وقائية أخرى[30]، تقضي بالتزام البقاء في البيوت وتفادي الخروج[31]،

كما يذكر "حمدان خوجة" ضمن هذا السياق أنه شهد العديد من الأوبئة التي اجتاحت الجزائر في نهاية الحكم العثماني، وأنه حرص على تطبيق الحجر على نفسه، وعدم الاختلاط مع الناس[32]، ذلك أن السلطة لم تكن تتخذ إجراءات صارمة في هذا المجال، ولم تعمل على تطوير الميدان الطبي، في الوقت الذي كانت فيه الدول الأوروبية والعديد من المناطق الأخرى، تفرض الحجر الصحي في أوقات انتشار العدوى، بحيث يذكر نفس المصدر أن الحجر الصحي كان يتم تطبيقه في إيالة تونس، وهذا ما يقودنا إلى إعادة الإشارة إلى دور وعي الحكام في هذا المجال[33].

5. نظام الحجر الصحي في الدولة العثمانية:

تجدر الإشارة أيضا إلى أن الدولة العثمانية لم تكن تجهل قواعد الحجر الصحي، وقد تعاملت معها العديد من الدول الأوروبية في هذا المجال في وقت مبكر، ما يفسر لنا أن السياسة العثمانية في الجزائر كانت ناتجة عن استهتار واضح في الميدان الطبي؛ حيث تشير بعض الكتابات التركية إلى أن النمسا طبقت قواعد الحجر الصحي على الركاب والسفن العثمانية نهاية القرن 15م[34]، وطبقته بصرامة سنة 1770م وذلك لطول الحدود الجغرافية بينها وبين الدولة العثمانية[35].

وتركز أغلب الكتابات التركية على فترة القرن التاسع عشر، الذي تم خلاله تبني الدولة العثمانية لنظام الحجر الصحي بصرامة على الرغم من أنها عرفت العديد من الأوبئة منذ القرن الخامس عشر، وعلى الرغم من أن الحجر الصحي كان مطبقا في الدول الأوروبية، التي كان لها احتكاك مباشر وغير مباشر مع الدولة العثمانية[36]، حيث تم تطبيق

الحجر على السفن في موانئ البحر الأبيض المتوسط في جنوة عام 1467م، ومرسيليا عام 1526م، وعام 1622م طبقت مرسيليا الحجر على جميع السفن القادمة من الدول الإسلامية، أما في سنة 1669م طبقت مرسيليا أيضا الحجر الصحي على السفن القادمة من بلاد الشام[37].

في فترة متأخرة فرضت الدولة العثمانية نظاما صارما للحجر الصحي سنة 1822م[38]، بعد أن تضررت من تفشي العدوى الناتجة عن "الكوليرا" خلال القرن التاسع عشر[39]، بحيث قامت الدولة العثمانية بإنشاء مراكز للحجر الصحي في اسطنبول، بورصة، وطرابزون، ومناطق الروميلي، وتم ربط قواعد الحجر الصحي بقانون الدولة للوقوف على صرامة تطبيقه، وصياغة العقوبات على المخالفين له[40].

6. خاتمة:

انطلاقا مما سبق يمكن القول أن نظام الحجر الصحي عرف منذ فترة تاريخية مبكرة مقارنة مع تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية، وعلى الرغم من ذلك لم تعمل السلطة العثمانية على تطبيقه بصرامة في إيالة الجزائر، أو حتى في المناطق الأخرى التابعة لها، وإن وجدت بعض المبادرات من حكام الجزائر في تطبيق التدابير الصحية اللازمة، إلا أنها لم تكن واضحة، بحيث أن السياسة الصحية في الجزائر خلال هذه الفترة لم تتميز بالاستمرارية ولم تكن واضحة، إذ لطالما تأثرت بطبيعة السلطة ومدى وعي الحكام.

إضافة إلى ما سبق وبمقارنة آليات السلطة العثمانية في تطبيق الحجر الصحي في إيالة الجزائر بنظيرتها في المناطق الأخرى من الدولة العثمانية، فيمكن القول أن اهتمامات العثمانيين بهذا المجال جاءت في فترة تاريخية متأخرة مقارنة مع الدول الأوروبية، وعلى هذا الأساس فإن استهتار العثمانيين في قواعد الحجر الصحي كان عاما وغير مقتصر على إيالة الجزائر.

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن الجزائر في الفترة العثمانية لم تعرف قاعدة صحية متينة للتعامل مع الأمراض والأوبئة، ما نتج عنه الانتشار المستمر للأوبئة وانتقال العدوى، والذي أثر على النمو الديمغرافي في الجزائر، وعلى المجالات الحيوية الأخرى كالاقتصاد، وانعكس سلبا على المجتمع، وتجدر الإشارة إلى أن الحجر الصحي يبقى من أنجع الطرق سواء في الفترة التي تناولتها دراستنا أو في الفترة الحالية التي يشهد فيها العالم استفحالا لانتشار فيروس مشابه للأمراض المعدية والطواعين عبر التاريخ.

7. الهوامش:

(1)- California Department of Health Service, Isolation and quarantine, October, 2006, p1.
(2)-Dr. Thamer Hatamleh, Uluslararası İslam ve tıp (Tıbb-ı Nebevi), Kongresi, Adana, 2015, s.91.
(3)- Dr. Thamer Hatamleh, a.g.e, s.101.
(4)- Gülden Sarıyıldız, Karantina, İslam ansiklopedisi, cil 24, İstanbul, 2001, s.463.

(5)- Soizic Bilmans, La quarantaine une mesure désuète ou nécessaire pour prévenir les pandémies, thèse de master en science nautique, école supérieure de navigation d'Anvers, Belgique, 2014-2015, p31.
(6)- Ibid, p32.
(7)- Gülden Sırıyıldız, a.g.e, s.463.
(8)- A.g.e, s.463.
(9)- عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، ص121.
(10)- أحمد الشريف الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، تح: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص152.
(11)- Bouyac.R, Histoire de bône, Imprimerie du courrier de Bone, Bone, 1891, p100.
(12)- يمينة مجاهد، تاريخ الطب في الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي 1830-1962، رسالة دكتوراه، جامعة وهران، 2017-2018، ص21.
(13)- محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص197.
(14)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1، 1998، ص418.
(15)- عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقاربة اجتماعية اقتصادية، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص65.
(16)- ج، أو، هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج، أو، هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس(1145هـ-1732م)، تر: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الاسلامي، تونس، 2007، ص76-77.
(17)- فوزية لزغم، "الأطباء الأوروبيون بالجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة عصور، المجلد12، ع2، 2013، ص238.
(18)-Laugier De Tassy, Histoire du royaume d'Alger, Chez Henri Sauzet, Amsterdam, 1724, p125.
(19)- فوزية لزغم، المرجع السابق، ص246.
(20)- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، 418.
(21)- فلة موساوي القشاعي، الصحة والسكان في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي (1518-1871)، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2003-2004، ص238-239.
(22)- محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص51.
(23)- Jean Marchika, La peste en Afrique Septentrionale :Histoire de la peste en Algérie de 1363 à 1830, thèse en médecine, université d'Alger, 1927, p152.
(24)- يمينة مجاهد، المرجع السابق، ص23.
(25)- فلة موساوي القشاعي، المرجع السابق، ص239.
(26)-Charles Féraud, Histoire des villes de la province de Constantine La Calle, éd. V.Aillaud et Cie, Alger, 1877, p66.
)27(- Haedo, F.D, Histoire des rois d'Alger, Tr, H.D De Grammont, Adolphe Jourdan libraire-éditeur, Alger, 1881, p108.
(28)- Jean Marchika, opcit, p145.
(29)- Ibid.
(30)- جمال الدين سعيدان، الأحوال المعيشية والصحية في الريف القسنطيني فيما بين (1830-1919)، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2013، ص62.
(31)- Jean Marchika, opcit, p152.
(32)- حمدان خوجة، مخطوط رقم 2456، المكتبة الوطنية الفرنسية، قسم المخطوطات، ص17.
(33)- نفسه، ص20-22.
(34)-Gülden sarıyıldız, a.g.e, s.463.
(35)- B.Mafart, J.L.Perret, Histoire du concept de quarantaine, conférences inaugurales, médecine tropicale, 1998, p16.

(36)-Şule Osmanağaoğlu, Berfin Melikoğlu, Tahaffuzhane ve gümrük veteriner müdürlüklerinin yapılandırılmasına ilişkin tarihsel değerlendirme, Türk veteriner hekimleri birliği dergisi, cil 1-2, 2011, Türkiye, s.80.
(37)-B.Mafart, J.L.Perret, opcit, p16.
(38)- Hurat Ardiç, Bakü'de kolera salgını ve osmanlı devleti'nin başvurduğu bazı sıhhî uygulamalar, Sutad, cil 46, Ağustos, 2019, s.303.
(39)- Mesut Ayar, osmanlı devleti'nde kolera salgını :İstanbul Örneği, doktora tezi, Marmara üniversitesi, 2005, s.05.
(40)- Gülden sarıyıldız, a.g.e, s.464.